الكتاب الثاني

الحظ والسعادة

فهل حاروا مع الأَقدار أو هم حَيَّروا القدرا؟!

العقاد

الفصل الأول

الطبيعة المتقلبة للحظ

بعد ذلك لزمت الصمت لحظةً، فاستوقفني تَرَفُّق صمتها نفسه والتفت إليها، هنالك أنشأت تقول: إذا صحَّ تشخيصي لعلَّة مرضك وطبيعته فأنت متحرِّقٌ إلى حظك الماضي، ويناجيك خيالُك بأن هذا التغيير قد أوقع الكثير من الاضطراب في روحك وعقلك، إنني أعرف الأقنعة العديدة التي يتنكَّر بها هذا المسخ — الحظ — وأعرف كم يغوي بالصُّحبة الأشخاص أنفسهم الذين يسعَى إلى خداعهم، ثم يَتَخلَّى عنهم ويتركهم في حزنٍ غامر، ولو تَذَكَّرت طبعه وطرائقه ومزاياه لَتبيَّنت أنك لم تُفِد منه ولم تخسر بفقدانه شيئًا ذا بال، ولكني لست بحاجةٍ إلى تذكيرك بهذا، فلطالما هاجمته، عندما كان يحالفُك ويداهنك، بكلماتٍ قويةٍ جريئة، وطالما فنَّدته بعباراتٍ اقتبستَها من حرمي المقدس، على أن كل تغييرٍ مفاجئ في الظروف لا بدَّ من أن يُوقع في النفس شيئًا من الاضطراب، هذا ما أخرجك أنت أيضًا عن طورك بعض حينٍ وسلب منك السكينة.

لقد آن لك إذن أن تأخذ جرعةً خفيفةً سائغةً تَشيع في داخلك وتُمهِّد الطريق بعد لجرعاتٍ أنجع، جرِّب إذن الأثر المهدِّئ للبلاغة المعسولة التي تمضي في طريقها الصحيح ما لم تَحِد عن مبادئي، ودعنا نُصغي إلى الموسيقى، خادمة داري، ترن في أوزانٍ خفيفةٍ أو ثقيلةٍ وفق طلبي.

ما الذي رَمَى بك، أيهذا الإنسان الفاني، في مستنقع الحزن والقنوط؟ لعلك قد أخذت على غرة، ولكنك تخطئ إن ظننت أن الحظَّ قد أدار لك ظهره، فالتغير هو طبيعة

الحظ ودَأبُه ودَيدَنُه، وهو في تقلُّبه نفسه إزاءك إنما كان حافظًا لعهده وثابتًا على مبدئه! وهو ذات العهد وعين المبدأ الذي كان به من قبل يتملَّقُك ويغويك بسعادةٍ زائفة.[١]

لقد تبَيَّنْت الوجه المتقلِّب لهذا الإله الأعمى، إنه ما زال يُخفِي شَخْصَه عن سواك بينما تَكشَّف لك أنتَ بتمامه، فإذا كنت مقتنعًا بطرائقه فإنَّ عليك أن تَقْبَلَها ولا تشكو، وإذا راعَتْك خيانته فاهجره وأَقلع عن ألعابه الخطرة، فإن ما يسبب الآن لك الأسى والحزن كان خليقًا بأن يجلب لك السلام، فلقد تخلَّى عنك من لا يأمن له أحدٌ ولا يثق ببقائه إلى جانبه على الدوام، أم هل تُقدِّر ذلك الصنفَ من السعادة المحتومة الزوال؟ هل يعزُّ عليك حظٌ تعلم أن بقاءه موضع شكٍّ وأن زواله يورث الحزن؟ فإذا كان المرء لا يملك التحكم في الحظ وَفْقَ إرادته، وإذا كان زواله يترك وراءه البؤس، فماذا عساه أن يكون هذا الشيء الروَّاغ سوى نذيرٍ بشؤمٍ قادم؟ إن العاقل لا يقنع بالنظر إلى ما هو أمام عينيه، فالحصافة تُقدِّر عواقب الأشياء، والعبرة بالخواتيم، إن تقلب الأحوال نفسها بين عسرٍ ويُسر ليجرِّد الحظ من سلاحه، فلا تعود تهديداته تُخيف ولا ابتساماته تُغري.

وأخيرًا، فما دُمت قد انحنَيْت للحظ ووضعت عُنُقَك تحت نيره، فإن عليك أن تتحمل، بجأشٍ ثابتٍ، كل ما يحدث في ملعب الحظ، وإذا كنت اخترت الحظ بملء حريتك ليكون سيدًا لك مسيرًا لحياتك، فمن الخطل بعد ذلك أن تُملي عليه قاعدةً تحكم مجيئه وذهابه، وإن لهفتك نفسها سوف تزيد مرارة أي نصيب لك لا تملك تبديله.

إنك إذا أسلمت شراعك للريح فستدفع بقاربك إلى حيث تشاء هي لا إلى حيث تشاء أنت، وإذا أنت أَوْدَعت بذورك الأرض فسوف توازن ما بين سنوات الرخاء وسنوات القحط، وما دمت الآن قد أسلمت نفسَكَ للحظ فعليك أن تخضع لأحكامه، أتريد حقًّا أن توقِف دولاب الحظ عن الدوران؟ ألا تعلم، يا أشدَّ الفانين حمقًا، أن الحظ إذا بدأ في التوقف لا يعود حظًّا؟!

---

[١] يُذكِّرنا «ثبات التقلُّب» هنا بقول المتنبي:

إذا غَدَرتْ حسناءُ وفَّت بعهدِها فمِن عَهْدِها ألا يَدومَ لها عَهْدُ

بيدٍ مسيطرةٍ يُدير الحظ دولاب التقلبات،[٢]
مثل أمواجٍ كاسحةٍ في خليجٍ غادرٍ تجيشُ جيئةً وذهابًا،
ويطيح الآن بملوكٍ مَرهوبي الجانب،
وما يزال مخادعًا وهو يرفع الأذلَّاء
إنه لا يُصغِي إلى المُعذَّبين ولا يكترث للباكين؛
بل يُقَهقه بقلبٍ متحجرٍ، ساخرًا من الأنين الذي ابتعثه
تلك لُعبتُه، وهكذا يختبر قُواه،
ويكون قد استعرض بأسه إذا رأى إنسانًا،
في ذات اللحظة
يُرفَع به إلى السَّعادة،
ويطوَّح به في الشقاء.

[٢] رغم أن تعبير «عجلة الحظ» أو «دولاب الحظ» the wheel of fortune ليس من ابتكار بوئثيوس (فقد كان تعبيرًا أثيرًا لدى شيشرون على سبيل المثال) إلا أنه من الصور البيانية اللافتة في «عزاء الفلسفة»، والتي جرت على أقلامٍ لا حصر لها في العصور اللاحقة (دانتي، تشوسر، ... إلخ)، وهناك لوحة تصويرية رائعة لعجلة الحظ في كاتدرائية روتشستر تعود إلى القرن الثالث عشر.

الفصل الثاني

الحظ يدافع عن نفسه

والآن أود أن أُحاجَّك قليلًا بكلام الحظ نفسه، وأن تنظر فيما إذا كان على حق:

أيها الإنسان، لماذا تَكِيل لي التهم وتلاحقُني كل يومٍ بشكاواك المتصلة؟ أي ظلمٍ ألحقتُه بك؟ أية ثروةٍ سلبتها منك؟ هات أي قاضٍ يروقُك ونازِعني أمامه حول ملكية الثروة والمنصب، وإذا أمكنك أن تُثبِت أن أي شيء من ذلك يخص أي بشرٍ فانٍ فَلَسوف أُسلِّم عن طيب خاطرٍ بأن ما تريد استرداده هو شيءٌ كان ملكك حقًّا، عندما أتت بك الطبيعة من بطن أمك فقد تلقَّيتُك عاريًا من كل شيء، فرَعَيتك ووهبتك من هباتي، ومَنَنْت عليك بخيري وربيتك، وهذا ما يجعلك الآن تضيق ذرعًا بي، ولقد غَمَرْتُكَ بكل الثراء والمجد الذي كان عندي وتحت تصرفي، والآن يحلو لي أن أكُف يدي، كن شاكرًا كأنك قد عشت مما أقرَضتُك، وإذا استعدت منك ما استعرته مني فبأي حق تشكو من ضياع شيءٍ لم تكن تملكه؟ لماذا تتظلَّم إذن؟ أنا لم أتَعَدَّ عليك، إن الثروة والجاه وكلَّ تلك الأشياء هي من حقوقي ومن سلطتي، إنها خدمي والخدم تعرف سيدها، إذا أتيت تأتي معي وإذا ذهبت تذهب، وإنني لأعلنُها واضحةً: لو كانت هذه الأشياء التي تتظلَّم لفُقدانها هي ملكك حقًّا لما كنت تفقدها أبدًا، أم تراني أنا وحدي من يبخس حقه ويحرم من ممارسة سُلطته المشروعة؟ لقد حُقَّ للسماء أن تأتي بالضياء الساطع بالنهار وأن تحجبه بالليل، وقد حق للعام أن يزين وجه الأرض حينًا بالزهر والثمر ويلبده بالغيم والصقيع حينًا آخر، ومن حق البحر أن يهدأ ويروق تارةً ويروع بالعواصف واللُّجج تارةً أخرى، أيريد الطمع البشري الدائم أن يُكْرِهني على ثبات ليس في طبعي؟ إن التغير هو جوهري ولبابي، في التغير تكمن قوتي الحقيقية ولعبتي الدائمة: إنني أُدير عجلتي دورانًا متصلًا، ويلذُّ لي أن أدفع الأسفل إلى الذروة والأعلى إلى القاع، فاصعد

معها إن شئت ولكن لا تلعنها إذا اقتَضَتْك أحكام اللعبة أن تهبط، أفأنت تجهل طباعي؟ ألم تسمع عن كرويسوس Croesus ملك ليديا Lydia الذي أرهب يومًا عدوَّه كيروس (قورش) Cyrus، ثم ما لبث أن نُكِب وحُكم عليه بالموت حرقًا، فأنقذته السماء بوابلٍ من المطر؟[١] لا بد أنك سمعت عن إيميليوس باولوس Aemilius Paulus وكيف ذرف دموع الحسرة على البلايا التي حاقت بسجينه بيرسيس Perses آخر ملوك مقدونيا،[٢] وما الذي تندبه التراجيديات بصخبها وعويلها، إن لم يكن هو القدر الذي يطيح بالممالك السعيدة بضرباته العشوائية؟ ألم تسمع في صباك ما رواه هوميروس من أن هناك وعاءين قائمين على عتبة زيوس، أحدهما مليءٌ بالشر والآخر مليء بالخير؟ ولقد اغترفت من الخير أكثر من قسطك، ولكن هل تخلَّيت عنك كل التخلِّي؟ إن تقلبي نفسه ليمنحُك سببًا وجيهًا لأن تأمل فيما هو أفضل؛ ولذا ينبغي ألا تضني روحك بأن تحملها على العيش وفقًا لقانونٍ من عندك، في عالمٍ يشارك فيه الجميع.

لو راحت إلهة الوفرة بفيضها الغامر[٣]
تذُرُّ العطايا بيد سخية.
عدد الرمال يذرُّها البحر هيَّجته العواصف
أو عدد النجوم المنتثرة في حُلكة الليل الرائق
ولم يغل يده
لما كفَّ الجنس البشري شكاياته ونحيبه
ورغم أن الله يَتَقبَّل دعاءهم

[١] كرويسوس ملك ليديا (حكم من عام ٥٦٠ إلى ٥٤٦ قبل الميلاد) كان قويًّا ثريًّا، يحكَى أنه قابل الحكيم اليوناني سولون وسأله من هو أسعدُ رجلٍ قابله في حياته، فردَّ عليه سولون ردًّا مأثورًا: «لا ينبغي أن يُعَد أحدٌ سعيدًا ما لم يختم حياته ختامًا حسنًا.» وقد لقي كرويسوس الهزيمة في النهاية على يد الملك الفارسي كيروس، الذي أسره وأمر بإحراقه ثم عفا عنه، وهنا تختلف الروايات: ففي تاريخ هيرودوت أن كيروس أمر بإطفاء النار غير أنهم لم يتمكَّنوا من إطفائها إلى أن ابتهل كرويسوس لأبولو فهطل المطر وأطفأها، وفي رواية أخرى أن كروسوس هتف ثلاث مرات باسم سولون، فتساءل كيروس من يكون سولون هذا، وحين سمع القصة أمر بإطلاق سراح كرويسوس.

[٢] إيميليوس باولوس قائد وقنصل روماني، قهر بيرسيس آخر ملوك مقدونيا في بيدنا عام ١٦٨ق.م.

[٣] إلهة الوفرة والرخاء والرفاهة Copia هي تجسيد للنماء.

ويُغدق عليهم الذهب بيدٍ مبسوطة
ويزين طمعهم بالأوسمة البراقة
فإن كل ما أعطاه يبدو عدمًا
فالجشع الضاري يبتلع ما طلبه
وما يَنفَكُّ يَفغَر فمه طلبًا للمزيد
أيُّ لجامٍ إذن وأية شكيمة
يمكن أن تكبح هذه الشهوة الجامحة وتضع لها حدًّا
بمجرد أن يطفئ مثل هذا السخاء
لهيب العطش إلى التملك والاكتناز
ألا لا تدعه غنيًّا ذاك الذي
ما يزال أبدًا لاهثًا متلهفًا
وقد وقر في اعتقاده أنه محتاج.

الفصل الثالث

حظوظه السعيدة

«إذا قدَّم الحظ هذا الدفاع فما أظنُّك واجدًا ردًّا عليه من جانبك، فإذا كانت لديك حجةٌ بوسعك أن تقدمها لتؤيدَ دعواك فهات بها وكلي آذانٌ صاغية.»

عندئذٍ قلت: «إن كل ما قُلته معقولٌ بالتأكيد ومسوغٌ بحلاوة البلاغة والموسيقى، غير أن كلماتك تروق المرء أثناء سماعها فحسب، إن للمعذبين مواجيد من بأسائهم غائرةً، حتى إذا ما فرغت كلماتك ولم تعد ترِن في الآذان عاد هذا الأسى المتأصِّل ليثقل القلب مرةً أخرى.»

فأجابت: هو ذاك، فهذا ليس العلاج بعد، إنما هو نوعٌ من التسكين لحزنٍ شديدٍ ما يزال يستعصي على العلاج، أما العلاجات التي تَنْفذ إلى العمق فسوف أستخدمها في الوقت الملائم.

ومع ذلك فما أحسبُك على اقتناعٍ بأنك من الأشقياء حقًّا، أم نسيت كم اصطفاك الحظ بعطاياه وآثرك بهباته؟ ألا يكفي أنك حين فقدت أباك تولَّتك رعاية أناسٍ من أعلى الطبقات، وجُعِلت صهرًا لأرفع عائلات المدينة؟ فقد كنت عزيزها قبل أن تكون صهرها، وذاك لعمري أغلى صنفٍ من الروابط جميعًا، من ذا الذي يشك في أنك أسعد الناس حظًّا فيما حباك الله به من زوجةٍ نبيلةٍ وأبناء نجباء؟ ناهيك بألوان المجد الذي بلغته وأنت شابٌّ بعد، وحظيت منه بما لم يحظ به أغلب البشر في كل العصور، وبحسبي أن أذكر ما توَّجَك به الحظ السعيد مما لم يُتوِّج به أحدًا سواك، ويكفي أن أذكِّرك بذلك اليوم المجيد الذي تتضاءل بجانبه كل نعم الدنيا، ولا تنال من بهائه كل ألوان الرزايا مهما ثقلت وتراكمت، وأعني ذلك اليوم الذي رأيت فيه ابنيك قنصلين في آنٍ معًا يُزفَّان من دارك بين تهنئة القناصل وتهليل الجماهير، إذ جلسا على مقاعد المجد بينما تُلقي

أنت خطاب التهنئة إلى الملك، وتنتزع الإعجاب لبلاغتك ونبوغك، في اليوم نفسه جلست في المدرج Circus بين القنصلين، في عرضٍ فخمٍ يليق بقائدٍ منتصر، تتلقى الحفاوة وتسعد الجماهير التي احتشدت حولك في شغفٍ وترقب.

أرى أنك قد أغلظت القول لإلهة الحظ Fortuna، لقد طالما لاطفتك ودلَّلتك كمعشوقٍ لها، وغمرتك بما لم تغمر به أحدًا من قبلك، هل لك أن تراجع حساباتها وتوازن بين ما أعطَت وما أخذت؟ هذه هي المرة الأولى التي ترمقُك فيها بالنظر الشَّزر، ولو أحصيت أوقات الشقاء، من حيث الكم والكيف، فلن يسعك أن تنكر أنك كنت امرءًا سعيدًا حتى الآن، أما إن كنت تنكر ذلك باعتبار زوال هنائك الذي مضى وفوات سعدك وانقضاء أسبابه، فليس لك أن تدَّعي رغم ذلك أنك الآن شقيٌّ بائس؛ لأن نفس الأشياء التي تراها بؤسًا هي أيضًا أشياء عابرةٌ ككل شيء آخر، هل أنت غريبٌ عن الحياة وافدٌ على مسرحها لأول مرة غير ملمٍّ بمشهدها وغير مدركٍ لأمرها؟ أتظن أن هناك أي دوامٍ لأي حال من أحوال البشر، وأنت تعلم أن هناك لحظةً مفردةً وشيكةً سوف تأتي على المرء وتمحوه محوًا؟ فرغم أن حظوظ الحياة قلما تدوم لأحد، فإن اليوم الأخير من عمر المرء فيه نوعٌ من الموت لإلهة الحظ حتى إذا لازمته وبقيت معه، أيُّ فرقٍ إذن بين أن تهجرها أنت بالموت وأن تهجرك هي بالفرار؟![1]

عندما تشرع الشمس بعربتها الوردية
في نشر ضيائها،
تكسف النجوم أمام ألقها الوهاج،
عندما ينسم ريح الغرب الدافئ
يكسو الرياض بورود الربيع الحمراء،

[1] في معنى قريبٍ، وإن اختلف السياقُ اختلافًا بعيدًا، يقول صديقنا طيبُ الذكر د. محمد راضي: «وقد علَّمني زمني ألا أنظر إليه جملةً، نظري إلى النسيج المتصل في الثوب الواحد، فما شجاعة الحياة إلا في قدرة المرء على اقتطاع ما أراد من زمنه حتى يملك فضيلة التسامح وشيمة الصَّفح، فكيف يَسعُنا أن نغفر لمن صادفونا في رحلة الحياة ما أخرت لنا أيديهم من شقاءٍ في زمنٍ لاحقٍ بما قدمت من نعيمٍ في زمنٍ سابقٍ إلا إذا أوتينا نعمة الاقتطاع من تيار الزمن؟» (أ.د. محمد صبري راضي، حوليات قلبٍ مغوار، تحفة روائية غير منشورة).

ثم لا تلبث ريح الشمال الملبَّدة أن تعصف،
فيذهب الجمال ولا يبقى منه غير الشوك
البحر يتألق تارةً في هدوء
ساجي الموج رائقًا،
وطورًا تضربُه ريحُ الشمال،
وتثير عليه الأعاصير الغاضبة،
إذا كان الكون نفسُه متقلبًا
لا يَثبُت على حال،
فكيف تضع ثقتك في عرض الدنيا،
ويقينك في النعيم الزائل،
مكتوبٌ في القانون الأزلي
ما من شيء مخلوقٍ له صفة الدوام.

الفصل الرابع

الحظ والسعادة

عندئذٍ أجبت: «حقٌّ كلُّ ما تقولين، أنت حقًّا أم الفضائل جميعًا، وما كان لي أن أنكر نجاحي وازدهاري السريع، غير أن هذا بعينه هو ما يزيد حرقتي كلما تذكَّرته، فبين صنوف البلايا جميعًا ليس هناك أبلغ شقاءً من أن يكون المرء قد سبق له أن عرف السعادة.»[1]

فأجابت: غير أنك تَشقَى بسبب اعتقادك الخاطئ، وليس لك أن تلوم الأحداث على ذلك، وإذا كنت متأثرًا حقًّا بهذا الاسم الفارغ لسعادة الحظ فإن بوسعك أن تحصي معي الآن عدد النِّعم الهائلة التي ما زلت تنعم بها، وما دمت تجد أنك ما زلت تملك من بين عطايا الحظ جميعًا أغلاها عندك، وتجدها بفضل الله كما هي سالمةً من أي أذًى، فكيف تزعُم أنك شقيٌّ تعيسٌ بينما سلمت لك أفضل النعم؟ أولًا، حَمُوك سيماخوس ما زال سليمًا معافى، إنه زينة الجنس البشري كله، وإنه رغم سلامته يبكي لما أصابك؛ لأن قيمتك لديه لم تهتزَّ وحياتك لم تَهُن … هذا الرجل الذي جُبِل من حكمةٍ وفضيلة.

وزوجتك أيضًا بخير، تلك السيدة التي لا تُجارى في النبل والتواضع، ولكي أختصر خلائقها جميعًا في كلمةٍ واحدةٍ، أقول إنها نسخةٌ من والدها، قلت إنها حيةٌ ترزق، وإنها وقد عافت الحياة ما تزال تهفو إليك وحدَك وتذرف عليك الدموع (ربما تكون هذه نقطةً تنتقص من سعادتك).

---

[1] قول مأثور عن بوئثيوس تَرَدَّد، شأن الكثير من أقواله في «عزاء الفلسفة»، على أقلام كتابٍ لاحقين، منهم دانتي الذي اقتبسها في «الجحيم».

وماذا أقول عن ابنيك القنصلين، إنهما ما يزالان، مثلما كانا منذ الصبا، يعكسان مثالك في الخُلُق ومثال جدِّهم، أنت رجلٌ سعيدٌ، إذن، إذا كنت تعرف أين تكمن سعادتُك الحقة، فإذا كان هم أهل الفناء منصرفًا إلى التمسك بالحياة، فإن بحوزتك الآن من الأنعم ما لا يشك أحدٌ أنه أغلى من الحياة نفسها، جفِّف دموعك إذن، فالحظ لم يدر لك ظهره تمامًا، ولم يسلبك كل ثرواتك، والعاصفة التي ضربتك لم تكن قاصمة، وما تزال مَراسيك ثابتةً راسخة، تتيح لك راحةً في الحاضر وأملًا في المستقبل.

قلت: «وإنني لأدعو أن تبقى راسخةً، ففي بقائها سيكونُ بوسعي أن أصمد للعاصفة وأتمَّ رحلتي مهما كانت الظروف، ولكن انظري كم فَقَدْت من أمجادي الماضية.»

قالت: ما دمت غير برمٍ بنصيبك من كل النواحي فإننا نكون قد تقدمنا إلى الأمام شيئًا ما، غير أني لا أحتمل تردُّدك وإغراقك في التحسر على ما فاتك من أسباب السعادة، فمن ذا الذي اكتمل حظه من السعادة فلم يدع له سببًا للشكوى؟ إن هناء الإنسان هو بطبيعته أمرٌ قلقٌ محفوفٌ بالاضطراب: فهو إما هناءٌ غير مكتملٍ وإما هناءٌ غير دائم، فتجد الغَنيَّ بالمال مفتقرًا إلى نبالة الأصل وكرم العنصر، وتَجِد الحسيب النسيب وقد أخمَلَه العَوَز وضيق ذات اليد، وتجد من ينعم بالثراء والحسب يشقى لافتقاره إلى الزوج، وتجد السعيد في زواجه محرومًا من الأبناء يذخر أمواله لكي يرثها الأغراب، وتجد من رزق الأبناء شقيًّا بأعمالهم، ما من أحدٍ يرضى بما قسم له الحظ، فلكلٍّ منا نصيبه المقدور من الألم الذي لا يعرفُه إلا من كابده.

تذكَّر أيضًا أن أولئك الأوفر حظًّا من السعادة يكونون مفرطي الحساسية: فمِن حيث إنهم لم يُوَطِّنوا النفس على معايشة المحن تراهم، إذا لم يجر كلُّ أمرٍ وفق هواهم، يسقطون لأقل محنةٍ وينهارون لأهون سبب، وبِوسع أتفه المصاعب أن تحرمهم من أن يخبروا السعادة بملء القلب.

تُرَى كم من الناس يعد نفسه متقلِّبًا في مثل نعيم الجنة لو أنه حظي بمعشار ما تبقَّى لك الآن من نعيم؟ هذا المكان نفسه الذي هو منفى بالنسبة لك هو وطنٌ بالنسبة لقاطنيه، ليس شقاءً إذن إلا ما تَعُده أنت كذلك،[٢] والعكس أيضًا: كل قدرٍ هو قدرٌ سعيدٌ

[٢] «ليس شقاءً إلا ما تَعُده أنت شقاء.» مَغْزى تردد، بتعبيراتٍ متعددة، على أقلامٍ كثيرةٍ قبل بوئثيوس وبعده، منهم إبيكتيتوس، وماركوس أوريليوس، وشكسبير، ومارك توين، والمتنبي، تفيد هذه العبارة

لو أنك تَلَقَّيتَه بثباتٍ ورباطة جأش، لم يبلغ أحدٌ قط من السعادة حدًّا لا يتمنى معه، إذا ما استسلم للقنوط، أن يغيِّر حاله، ألا ما أشد المرارة التي تمتزج بحلاوة الحياة، فرغم أنها قد تبدو ممتعةً لذائقها، فإنه لا يمكنه استبقاؤها إذا هي آذنت بالزوال، ألا ما أبأسها تلك السعادة التي تأتي من حطام الدنيا: فلا هي تدوم للعاقل ولا هي تُقنع الأحمق.

لماذا إذن يا أهل الفناء تبحثون عن السعادة خارج أنفسكم وهي كامنةٌ فيها؟ إن الضلال والجهل ليذهبان بِكُم كل مذهب.

دعني أوجز لك سر السعادة الخالصة: هل هناك ما هو أغلى عندك من نفسك؟ ستقول لا، إذن إذا كنت سيدَ نفسك فأنت تملك شيئًا لا تود أن تفقده على الإطلاق، ولا يستطيع الحظ أن يَسلِبَك إياه، إن السعادة لا يمكن أن تعتمد على أشياء خاضعةٍ للمصادفة، فإذا كانت السعادة هي الخير الأقصى للكائن الذي يعيش حياته بواسطة العقل، وكان الخير الأقصى شيئًا لا يمكن أن يُسلب من صاحبه على أيِّ نحو (لأنه إن يُسلَب لكان ما لا يُسلَب خيرًا منه)، ينتج من ذلك أن الحظ، بتقلبه وانعدام ثباته، لا يمكن، ولا يُؤمَّل فيه، أن يؤدي إلى السعادة.

كما أن من تقوده مثل هذه السعادة الفاشلة هو إما يعرف تَقلبها وإما لا يعرف، فإذا كان لا يعرف فأي سعادة يمكن أن تكون في عمى الجهل؟ وإذا كان يعرف فلا بُدَّ أنه في خوفٍ من ضياع ما يعلم أنه عُرضةٌ للضياع، ولا بد أن هذا الخوف المتصل يحول بينه وبين السعادة، فإذا كان يرى أن احتمال ضياعها هو أمرٌ غير ذي بال، فلا بد أن الخير الذي يتحمل المرء فقدانه بلا اكتراث هو خيرٌ ضئيلٌ حقًّا.

وما دمت، كما أعلم، تؤمن إيمانًا تامًّا، ببراهين لا حصرَ لها، أن روح الإنسان لا يمكن أن تَفنَى، وحيث إن من الواضح أن السعادة القائمة على الحظ تنتهي بموت الجسد، فقد تبيَّن بما لا يدع مجالًا للشك أنه إذا كان الموت يذهب بالسعادة، فإن

أن «الانفعالات أحكامٌ» كما ذهب الرواقيون، وأننا لا ننفعل في حقيقة الأمر للأحداث ذاتها بل لفهمنا للأحداث وتقييمنا لها، وقد التقط عددٌ من السيكولوجيين المحدثين هذا الخيط الرواقي وجعلوا منه مدرسةً كاملة في العلاج النفسي (العقلاني الانفعالي عند ألبرت إليس، والعلاج المعرفي عند آرون بك)، تقوم هذه المدارس على أن الأفكار التي تولد الانفعالات المرضية هي أحكامٌ خاطئة ومغالطاتٌ ينبغي تصويبها بالعقل والمنطق حتى يعودَ الانفعالُ إلى حالة السواء.

الجنس البشري بأسره يكون صائرًا إلى الشقاء عند حد الموت، غير أننا نعرف أن كثيرًا من الناس قد التمسوا بهجة السعادة الحقيقية من خلال الموت، بل من خلال العذاب والتضحية، يبدو إذن أن السعادة التي لا يَشقَى البشر بفقدانها لا يمكن أن تجعلهم سُعداءَ بوجودها!

من يُرد أن يُشيِّد بيتًا
لا تزعزعه الريح التي تزمجر من الشرق،
ولا يَتَهَدَّده البحر بأمواجه الطامية،
فليتجنَّب ذُرى الجبال
ومُنبسط الرمال الظمأى،
فالأولى تأخذ لطمة ريح الشمال العاتية،
والثانية تذوب تحت ثقلها وتنوءُ بحِملها؛
ليتجنب المآل الوبيل
للمواقع التي تسُر الناظرَ،
وليحرص على أن يشيد بيته على صخرةٍ متواضعة
وليدع الريح تزأر،
وتمخض البحر الفائر
لقد أسَّست على الآمن
واعتصَمْتَ بالوطيد،
فاهنأ بحياةٍ هادئة
وابتسم لغضب الزوابع.

الفصل الخامس

الخيرات المادية

ولكن بما أن الأدوية العقلية الأولى تُوغل منك إلى أعماقٍ أبعد، فلعل الأوان قد آن لأدويةٍ أقوى بعض الشيء، افترِض إذن، على سبيل الجدل، أن عطايا الحظ ليست عابرةً ولا زائلة، فقل لي أي شيء فيها يمكن أن يكون لك إلى الأبد، أو لا يفقد قيمتَه لدى الفحص والتمحيص؟ ما الذي يجعل للثروة قيمة؟ أهي قيِّمةٌ لأنها ملكك أم لصفة أخرى تخصها؟ وما هو الأفضل: الذهب ذاته أم القوة التي تسبغها الثروة المدَّخرة؟ من المؤكد أن الثروة تكون أكثر تألقًا بالإنفاق منها بالاكتناز، وأن البخل يُبغِّض صاحبه إلى الناس، بينما السخاء يجلب لصاحبه الشرف والرفعة، ولكن ما ينتقل إلى الآخر لا يمكن أن يبقى بحوزة صاحبه، فالمال إذن لا يكون ذا قيمة إلَّا عندما يُغدَق به على الآخرين، أي عندما لا يعود مملوكًا! والمال إذا انتقل من أيدي الناس جميعًا إلى يد فردٍ واحد فإنه يُترك بقية الناس في فقرٍ مدقع، قد يكون بوسعك أن توزِّع صوتك بالتساوي فيملأ آذان كل سامعيه على حد سواء، ولكنك لا يمكنك أن توزع ثروتك على الآخرين دون أن تنتقص، فالثروة حين تُقتسم بين الكثيرين فلا مناص من أن تُفقر من تَرَكَتْهم، ألا ما أهون الثروة إذن وأعجزها تلك التي لا شراكة فيها من دون انتقاص ولا تأتي لواحدٍ إلا بإفقار الآخرين.

أم هل يجذب عينيك بريق الجواهر؟ ولكن إن كان في هذا البريق أي روعةٍ فإنما هي روعة بريق الجواهر لا بريق البشر؛ ولذا أعجب من أعجب من إعجاب الناس بها! فكيف يمكن لشيءٍ ليس فيه روحٌ تحركه ولا بنيةٌ لأجزائه أن يستحق إعجاب كائنٍ عاقلٍ حي ويعد جميلًا في نظره؟ صحيحٌ أن هذه الأشياء من إبداع خالقها، وأن في رونقها وزُخرُفها مسحةً من الجمال، غير أن جمالها أقل مرتبةً من جمالكم أنتم المخلوقات العليا، ولا يستحق إعجابكم على الإطلاق.

أم هل يبهجك جمال الطبيعة؟ إنها حقًّا جزءٌ جميل من خلقٍ جميل، ونحن من جانبنا نبتهج أحيانًا لمرأى البحر الساجي، وتُدهشنا السماء والنجوم والشمس والقمر، ولكن أي شأن لك بأيٍّ من هذه الأشياء؟ وهل تجرؤ على التباهي الشخصي بجمال أيٍّ منها وروعته؟ هل أنت نفسك مزدانٌ بأزهار الربيع؟ هل بخِصبك أنت أَيْنعت الثمار في الصيف؟ لماذا أنت مأخوذٌ بمباهج فارغةٍ، لماذا تدَّعي لنفسك خيراتٍ خارجةً عنك ولا تمُت لك بصلة؟ إن من المحال أن يكون الحظ قد حباك بما جعلته الطبيعة غريبًا عنك، صحيحٌ بالطبع أن ثمرات الأرض قد جُعِلَت طعامًا للأحياء، غير أنك إذا قنعت بأن تسد حاجاتك، وهو كل ما تقتضيه الطبيعة، فلست بحاجةٍ إلى طلب المزيد من الحظ، إن الطبيعة تقنع بأقل القليل: فإذا ما عمدت إلى أن تتخمها بما هو فوق الحاجة، فإن ما تُغدِقه سيكون مُغثيا بل مضرًّا.

أم لعلك تحسب أن الجمال يعني أن ترفُل في ثيابٍ متألقة من كل صنف: ولكن إذا كان الثوب يسر ناظري فإنما ينصبُّ إعجابي على جودة خامته أو على مهارة الحائك.

أم يَزْدَهيك أن تكون محاطًا بصفٍّ طويلٍ من الخدم والحشم، الذين إن فسدوا فهم عبءٌ خطيرٌ على الدار، وتهديدٌ حقيقيٌّ لصاحب الدار، أما إن توافرت فيهم الأمانة فكيف تَعُد أمانة غيرك ضمن ممتلكاتك؟

من ذلك يَتَبيَّن أنه لا شيء من هذه الأشياء جميعًا التي تَعُدها من ثروتك هو حقًّا لك، وحيث إنك لا تكتسب أي جمالٍ منها بحيازتها، ففيم تأسى على فقدانها أو تفرح باستبقائها؟ وإذا كانت هي جميلةً بطبيعتها فما دَخْلك أنت بها؟ إنها لجميلةٌ حتى لو كانت في حوزة غيرك، إنها لا تستمد قيمتها من أنها وقعت في حوزتك، بل أنت أردت إضافتها لثروتك لأنها بدت ذات قيمة.

ما الذي تَسْعَون إليه من وراء هذا الضجيج عن الثروة؟ ألكي تنفوا الحاجة تطلبون المزيد؟ ولكنكم ترون أن ما تحصِّلون هو النقيض، إنكم لن تزويدا عوزكم إلا تفاقمًا: فكلما تعدَّدت ممتلكاتكم الثمينة زاد احتياجكم إلى العون على حمايتها، وصدق فيكم القول القديم «من كثرت ممتلكاته كثرت احتياجاتُه»،[1] ونقيض ذلك أيضًا صحيح: ما أقل احتياج ذلك الذي يضبطُ ثروته بمقدار ضروراته الطبيعية لا بمقدار الترف والتباهي.

[1] تردد هذا المعنى على أقلامٍ كثيرة، منها ما قاله أندريه كريسون عن فولتير: «فهم يملكون الأراضي إلا أن الأراضي تملكهم كذلك! فقد احتَبَسته أراضيه فما عاد يغادرها، وشغلَته شغلًا تامًّا.»

لَكَأني بكم تستشعرون فقركم الداخلي، فيدفعكم إلى التماس خيراتكم من خارج أنفسكم، إنه لانقلابٌ للأمور أن يظنَّ الكائن الإلهي العاقل أن مجده لا يَكْمُن إلا في تملُّك سلعٍ لا حياة فيها، إن المخلوقات الأخرى لقانعةٌ بما لديها، أما أنتم يا من خُلِقَ عقلُكم «على صورة الله» فَتَسعون إلى تزيين طبيعتكم العليا بأشياء سفلى، ولا تدركون مبلغ خطئكم تجاه خالقكم، لقد أراد أن يرتفع الجنس البشري فوق كل أشياء الدنيا، ولكنه يأبى إلا أن يضع نفسه أسفل منها جميعًا في أحط مكان.

ذلك أنه إذا سمحنا لكل شيءٍ ممتلكٍ أن يكون أكثر قيمةً من مالكه، وحيث إنكم تحسبون أتفه الأشياء ملكًا ثمينًا، فأنتم إذن تضعون أنفسكم في منزلةٍ أدنى من أتفه الأشياء، وما في ذلك غَبْنٌ لكم.

هذا، إذن، حال الطبيعة البشرية: إن الإنسان هو تاج الخليقة ما دام يعرف نفسه، فإذا نسيها فإنه يكون أحط من البهائم، فإذا جهلت سائر المخلوقات نفسها فذاك أمرٌ طبيعي، أما إذا جهل الإنسان نفسه فذاك إثم، ما أفدح الخطأ الذي يرتكبونه: أن تظنوا أن أي شيء يمكن أن يَحسن بزينةٍ لا تَمُت له، غير أن ذلك محال؛ لأنه إذا ما تألق شيءٌ بالزينة الملحقة عليه، فإن الملحقات نفسها هي ما يستحق التقدير، بينما يبقى الشيء المخبوء من ورائها على حاله بكل قبحه ودمامته.

وإنه لا يجوز أن يُعَد خيرًا ذلك الذي يُلحق الأذى بصاحبه، أليس كذلك؟ غير أن الثروة كثيرًا ما تؤذي أصحابها، فكلُّ السَّفِلة من البشر، أولئك الذين يشتهون ما ليس لهم، يرون أنهم الأحق بكل الذهب والجواهر، تَعَلَّم إذن، يا من يروعك الآن هاجس السيف والرمح في يد اللص، تَعَلَّم أن تَذْرَع حياتك خاويَ الوِّفاض، حتى يمكنك أن تصفر وتغني أمام قاطع الطريق.[٢]

ما أروعها إذن نعمة الثروة الفانية! ما أن تحصل عليها حتى يغادرَك الأمان.

ما كان أسعد البشرَ في ذلك الزمن الأول،
قانعين بثمرات الطبيعة الوفية
لم يُفسِدهم الترف المُوهن

[٢] تذَكَّرنا ببيت شعرٍ شهيرٍ ليوڤيناليس Luvenalis «المسافرُ المفلسُ يصفر في طريقه أمام أي قاطع طريق.»

ثمار الجوز دانيةٌ لهم،
لا يقطفونها إلا إذا بلغ منهم الجوع
لا يعرفون عطايا باكخوس (ديونيسوس)،[٣]
ولا النبيذ المُحلَّى بالشهد
أو كيف يصبغون حرير الصين البراق
بأصباغ صور الأرجوانية،
أريكة العشب تمنحهم نومًا صحيًّا،
والنمير الصافي يُقدِّم شرابًا زلالًا،
والصنوبرةُ السامقة تقدم ظِلا
لم يشُقَّ أيٌّ منهم عباب البحر،
ولا شحن بضائع إلى شواطئ غريبة،
لم تكن تسمع أبواق الحرب في تلك الأيام،
لم يكن الحقدُ المر
يرعب الأرض المضرَّجة بالدم المسفوح،
لم يكن لديهم ما يثير البغضاء
ولا جنونٌ يدعوهم إلى أن يشهروا سلاحًا على عدو،
أولئك الذين لم يعرفوا مرأى الجروح الفاغرة،
ولا مردودًا يعود عليهم من الدم.
آه لو أن أزماننا تعود إلى خليقة الأولين،
ولكنَّ شهوة التملك تتفجر
أعنفَ من حُمم بركان إتنا،
ويح ذلك الرجل، أيًّا من كان،
الذي استخرج لأول مرة
أكوام الذهب الدفين في الأرض،
والماس القانع بمخبئه،
ومنحنا أخطارًا بمثل هذا السعر!

[٣] باخوس (باكخوس) Bacchus إله الخمر، ويُعرف أيضًا بالاسم اليوناني «ديونيسوس».

الفصل السادس

المنصب والسلطة

وماذا عساي أن أقول عن السلطة والمنصب، اللذين يطاولان السماء في نظركم، لأنكم لا تعرفون السلطان والمنصب الحقيقيين، وهل بِوسع الحمم المتفجِّرة من بركان إتنا، أو بوسع السيل العرم، أن يسبِّب من الخراب ما يسببه هذان حين يقعان في أيدي الأشرار؟ ألا تذكر كيف سعى أسلافنا إلى إلغاء سلطة القناصل، التي كانت أُس الحرية ذاته، لما وجدوه من غرور القناصل؟ مثلما محوا لقب «ملك» من قبل لما وجدوه من غرور الملوك، فإذا تصادف، في حالاتٍ شديدة الندرة، أن تقع هذه المناصب لرجالٍ أمناء، فلا شك أن الخير الوحيد فيها إذَّاك هو أمانة الرجال الذين يتولون المناصب، يترتب على ذلك أن الشرف لا يأتي إلى الشريف من المنصب، بل يأتي إلى المنصب من الشريف.

فإلى متى يغريكم بريقُ السلطة؟ انظروا، يا أبناء الفناء، على من تريدون أن تمارسوا سُلطتكم، أليس يثير ضحككم أن تروا مجتمعًا من الجرذان وقد انبرى جُرَذٌ منهم يدَّعي لنفسه حق التسلط عليهم والتحكم في شئونهم؟ ثم انظروا إلى الجسد الإنساني هل وجدتم ما هو أضعف وأوهى من الإنسان: ألا تكفي لدغة حشرةٍ ضئيلة، أو انسرابها في داخله، إلى القضاء عليه؟ وهل يمكن لأحدٍ أن يمارس تسلطه على شيء سوى الجسد وما هو أدنى من الجسد — الممتلكات؟ هل بمقدورك أن تفرض أي قانون على الروح الحرة؟ أو أن تزحزح عقلًا متماسكًا عن سكينته وثباته؟ ألا تَذكُر ذلك الطاغية الذي ظنَّ أنه يمكنه بالتعذيب أن يُرغم رجلًا حرًّا على أن يشي بشركائه في المؤامرة

المنسوبة إليه، فما كان من الرجل سوى أن عضَّ لسانه وبصقه في وجه الطاغية؟ لقد حسب الطاغية أن التعذيب مناسبةٌ للبطش، فجعله الرجل مناسبةً للبطولة.[١]

وهل ثمة شيءٌ يمكن أن توقعه بأحدٍ وأنت بمأمنٍ ألا يقع لك يومًا على يد شخصٍ آخر؟ إننا لَنَذكر كيف دأب الملك المصري بوزيريس Busiris[٢] على قتل الأجانب، حتى ذاق هو نفسه الموت على يد أجنبيٍّ هو هرقل، ونذكر في الحرب البونية (= الفينيقية) الأولى القائد ريجولوس Regulus[٣] الذي وضع الأغلال في أعناق كثيرٍ من الأسرى القرطاجنيين، فما عتَّم بعد ذلك أن وقع أسيرًا لديهم وأسلم نفسه لأغلالهم، أية سلطةٍ هذه التي لا يأمن صاحبُها أن ينزل به ما أنزلَه بغَيره؟

لو كانت المناصب والسلطات خيرًا بطبيعتها وفي ذاتها لما وقعت في أيدي الأشرار، فالأضداد لا تجتمع أبدًا، والطبيعة لا تسمح للنقيض بأن يتصل بنقيضه، ومما لا شك فيه أن أسوأ الناس هم من يتولون المناصب في أغلب الأحيان، من الواضح إذن أن المناصب ليست خيرًا في ذاتها؛ لأنه ليس خيرًا بذاته ذلك الذي يرتبط بالأشرار ويُسلِم نفسه لهم.

والشيء نفسه ينسحب على ألوان الحظ الأخرى، التي تقع أكثر ما تقع في أيدي أشد الناس خبثًا وشرًّا.

ثمة نقطةٌ أخرى في هذا الصدد: لا شك أن الشخص يكون شجاعًا إذا وُجِدت فيه أمارات الشجاعة، ويكون سريعًا إذا تمتع بصفة السرعة، كذلك الموسيقى تجعل منه موسيقيًّا، والطب يجعله طبيبًا، والبلاغة تجعله خطيبًا؛ لأن من طبيعة كل شيءٍ أن يؤدي الدور الملائم له، ولا يختلط بأدوار أشياء أخرى مناقضة، بل يرفض الأضداد في حقيقة الأمر، غير أن الثروة لا يمكن أن تروي غُلَّة الجشع، والسلطة لا تجعل من المرء سيدًا

---

[١] لا يذكر بوئثيوس اسم الطاغية ولا اسم الفيلسوف، وقد روى ديوجينيس لا إرتيوس قصة أكثر من فيلسوف عضَّ لسانه وبصقه في وجه الطاغية، وقد أشرنا إلى ذلك في حاشيةٍ سابقة.

[٢] بوزيريس، في الميثولوجيا اليونانية، ملكٌ مصري دأب على أن يضحي إلى زيوس بكل أجنبي يدخل مصر، وقد قُهِر وقُتِل على يد هرقل.

[٣] ريجولوس قائد روماني هزمه القرطاجنيون سنة ٢٥٥ق.م في الحرب البونية الأولى، وتروي سجلات التاريخ الروماني أنه ذهب إلى روما بتعهد لكي ينظم عملية تبادل أسرى، فلما فشل في مسعاه عاد إلى قرطاجنة طوعًا وأسلم نفسه للقرطاجنيين وأُعدم تعذيبًا عام ٢٥٠ق.م.

على نفسه إذا كان يَرسُف في أغلال شهواته، وعندما يُوَسَّد المنصب إلى غير أهله، فإنه لا يجعل منه أهلًا على الإطلاق وإنما يفضحه لا أكثر ويكشف عجزه وتفاهته، لماذا كان ذلك؟ لأنكم تحبون أن تُسَمُّوا الأشياء بأسماءٍ زائفة لا تخصُّها، وسرعان ما ترفضها على المحكِّ خصائصها الحقيقية؛ لذلك فلا الثروة ولا السلطة ولا المنصب يَصِح أن تُسمَّى بهذه الأسماء، والنتيجة نفسها تنسحب على الحظ ككل، فليس فيه شيءٌ يستحق عناء السعي، وليس فيه أي شيء من الخير الذاتي، ذلك أنه لا يَئول دائمًا إلى الأخيار، ولا يجعل ممن يؤول إليهم أخيارًا.

إننا نعرف الخرابَ الذي أحدثه نيرون،
عندما أحرق روما وذبح القناصل،
ونعرف كيف قَتل أخاه بيده،
وكيف تقطَّر بدم أمه المُهراق،
وأخذ يُجيل في الجثمان عينًا خبيرة
دون أن تندَّ دمعةٌ ترطب خدَّه،
ذوَّاقة بارد يتأمل الجمال البارد،[٤]
كان مُلْكُه يمتد من مَشرِق الأرض إلى مغربها،
ومن شمالها القارس
إلى جنوبها المُتلظِّي،
فهل استطاع السلطان الرفيع
أن يكبح جنون نيرون المسعور؟
يا له من قدرٍ وخيم
حين تجتمع السلطة والقسوة،
ويُضاف السيف الظالم
للباطش الهمجي.

[٤] حَكَم نيرون إمبراطوريةً رومانية واسعة من عام ٥٤ إلى ٦٨م، وقد أمر بقتل أخيه (غير الشقيق) بريتانيكوس وأمه أجريبينا، ويُروَى أنه بعد قتل أمه جعل يتفحَّص جثتها ويتأملها ويُثني على جمالها وهيئتها!

الفصل السابع

المجد والشهرة

عندئذٍ قلت لها: «أنت تعرفين جيدًا أن الطموح إلى متاع الدنيا لم يكن من طبعي، غير أني كنت ألتمس الوسائل التي أُدير بها شئون الدولة حتى أحقق الخير، وحتى لا تَشيخ الفضيلة وهي خاملة الذكر.»

فردَّت قائلة: وهذا هو الشيء الذي يجتذب العقول الممتازة بطبيعتها وإن لم تبلغ بعدُ كمال الفضيلة؛ أعني الرغبة في المجد؛ أن يكون المرء شهيرًا بما حقَّقه للدولة من أنبل الخدمات، ولكن تأمَّل كم هي هزيلةٌ لا وزن لها مثل هذه الشهرة في حقيقة الأمر. فأنت تعرف جيدًا من تعاليم الفلكيين أن محيط الأرض هو نقطةٌ ضئيلةٌ بالقياس إلى امتداد السموات، بحيث يجوز القول إنها لا حجم لها على الإطلاق بالمقارنة بحجم الكون، ومن هذا الجزء الضئيل من الكون، كما تعلَّمت من براهين بطليموس، فإن الربع فقط هو المأهول بالكائنات الحية المعروفة لنا، فإذا طرحت من هذا الربع تلك المساحات التي يغطيها البحر والمستنقعات، والمساحات الشاسعة التي تَشغَلها الصحارى المقفرة، لما بقي للإنسان إلا أقل القليل. ها هي النقطة الضئيلة داخل نقطةٍ ضئيلة، معزولة مسيَّجة، التي تريد أن تنشر فيها مجدك وتُذيع شهرتك، فأيُّ حجمٍ أو قيمةٍ لمجدٍ متقلِّصٍ داخل هذه الحدود الضيقة الكتيمة؟![1]

وتذكَّر أيضًا أن هذا الحيز الصغير الذي نعيش فيه تسكنه شعوبٌ كثيرةٌ مختلفة اللغات والعادات وكل طرائق العيش، ومع صعوبة الترحال واختلاف اللسان وندرة

---

[1] أفاد بوئثيوس هذه «الثيمة»؛ أي ضآلة الأرض بالنسبة إلى بقية الكون، مما رواه شيشرون عن «حلم سكيبيو» Dream of Scipio، الذي عرفه دانتي أيضًا فيما بعدُ وأفاد منه في «الكوميديا الإلهية»، في

التجارة فإن شهرة المدن الكبرى، ناهيك بالأفراد، لا تصل إليهم. يذكُرُ شيشرون في موضعٍ ما من كتبه أن شهرة روما في زمنه لم تتجاوز جبال القوقاز، رغم أن الإمبراطورية كانت عندئذٍ مكتملة النمو ومرهوبة الجانب لدى الفرس والشعوب الأخرى في تلك المنطقة.

أرأيت كم هى ضيقةٌ منكمشةٌ تلك الشهرةُ التي تَجهَد إلى أن تبسُطها وتذيعها؟ وهل يمكن لروماني أن تصل شهرته إلى أصقاعٍ لم تَصِل إليها روما؟

ثم أليست القيم والتقاليد تختلف من شعبٍ إلى شعب اختلافًا بعيدًا، بحيث إن ما يُعَد مجيدًا عند بعضها قد يكون مشينًا يستوجب العقاب عند بعضها الآخر؟ قد يَسُر المرء أن تذيع شهرته بين شعبه، غير أن شهرته عندئذٍ لن تكون في صالحه لدى شعوب كثيرة! فليقنع إذن بشهرته بين شعبه، ولتنكمش شهرته الخالدة البراقة داخل حدود أمةٍ واحدة.

وكم من رجلٍ أصاب شهرةً في زمنه ثم انطفأت شهرته لغياب المؤرخين المُنَوِّهين بذكره، على أن التواريخ نفسها لا جدوى فيها إذا ما فُقِدت مع كُتَّابها وطواها الزمن الذي يطوي كلَّ شيءٍ ويُسدِل عليه ستائر النسيان.

لعلك تظن حين تتصور شهرتَك في مُقبل العصور أنك تؤمِّن لنفسك ضربًا من الخلود، ولكن إذا ما تأملتَ الامتداد اللانهائي للأبدية فمن أين يأتيك الفرح بامتداد شهرتك عبر الزمن؟ إن لك أن تقارن أَمَد الثانية الواحدة بأمد عشرة آلافٍ من السنين! فمهما تكن ضآلة الثانية فإن لها قيمةً في المقارنة لأن كلتيهما قَدرٌ متناهٍ من الزمن.

«حلم سكيبيو» يظهر له جده العظيم ويُشير له من مجرة «درب اللبانة» إلى كوكب الأرض الضئيل الهزيل، وفي «الكوميديا الإلهية» يقول دانتي في «الفردوس»:

أرجَعتُ البصر خلال السموات السبع،
فرأيت هذا الكوكب ضئيلًا جدًّا وضائعًا في الفضاء،
فابتسمت مرغمًا لمثل هذا المنظر المؤسف.

(الفردوس٢٢، ١٣٣–١٣٥)

وقد تردَّدت هذه «الثيمة» على أقلامٍ كثيرة على مرِّ العصور، نذكر منها قول توماس هاردي في قصيدته «الخسوف»: «وأسأل: أهذا الشبح الضئيل هو كل ما يطرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء؟! أكذلك يكون مقياس الكواكب لما تُبديه الأرض ويكشفه عليها الزمان، من أممٍ تنحر أممًا ورءوس تغلي بالهواجس وأبطالٍ غالبين ونساءٍ أجمل من طلعة السماء؟!»

غير أن العشرة الآلاف أو أي مضاعفاتٍ لها من السنين مهما عَظُمت لا يمكن أن تُقارَن بالأبدية، فإذا كانت المتناهيات تقبل المقارنة إحداها بالأخرى، فإن المتناهي واللامتناهي لا تمكن مقارنتهما على الإطلاق؛ ومِن ثَمَّ فمهما امتد عمر شهرتك فإنه حين تقارنه بالأبدية يتبيَّن أنه ليس ضئيلًا فحسب بل لا شيء على الإطلاق.

إنكم لا تعرفون أن تفعلوا ما هو حسنٌ إلا وأعينكم على رأي الناس ومن أجل السمعة الفارغة، هكذا تُغفلون سلطان الضمير وامتياز الفضيلة، وتلتمسون ثوابكم في القيل والقال. أصغ إليَّ إذ أحكي لك حكاية الرجل الذي عرف كيف يَسْخَر من سطحية هذا اللون من الغرور. يُحكَى أنه سَمع أن رجلًا سمى نفسه فيلسوفًا عن ولعٍ بالشهرة لا عن رغبةٍ في ممارسة الفضيلة، فقال لنفسه: سأجرِّب معه السب والإهانة فإذا احتملهما بثباتٍ ورباطة جأشٍ فهو فيلسوف، ثم راغ عليه سبًّا وإهانةً، فتصنَّع الرجل الصبر والثبات واحتمل الإهانات فترةً، ثم قال في سخرية: «هل رأيت أخيرًا أني فيلسوف؟» فردَّ عليه الأول لاذعًا: «لو أنك سكتَّ لرأيت ذلك حقًّا.»

غير أن من يعنينا الآن هم عظماء الرجال، وأنا أتساءل: لماذا يسعون إلى المجد والشهرة رغم التماسهما من خلال الفضيلة؟ ماذا يُهِمُّهم من أمر السمعة عندما ينتهي الجسد إلى الموت الذي هو نهاية كل شيء؟ فإذا كان الفناءُ مقدَّرًا على الإنسان كله جسدًا وروحًا — وهو ما ينهانا عقلنا عن اعتقاده — فالشهرة لا شيء ما دام الإنسان الذي يقال إنه حازها لم يَعُد موجودًا، أما إذا كانت الروح تَبقَى واعيةً بعد أن تتحرر من سجنها الأرضي وتهفو إلى السماء، فلسوف تزدري كلَّ شأنٍ أرضيٍّ، مبتهجةً بالسماء سعيدةً بانعتاقها من هذا العالم.

أيها الجامح في أفكاره لا يلوي على غير الشهرة،
ولا يعرف خيرًا أعلى من المجد،
انظر إلى أبعاد السماء المترامية،
وقارنها بهذه الأرض الضيقة،
انظر مهما اتسعت شهرتك فهي لا تملأ دائرةً صغيرةً كهذه.
أيها المغرورون. لماذا تحاولون عبثًا
أن تضعوا عن أعناقكم نير الفناء؟

قد تَذيع الشهرة بعيدًا ويرنُّ الصيت في الأقطار ويجوب الأمصار،
وتنطلق به الألسنة،
قد تتلألأ الدار بحكايا المجد،
لكن الموت لا يُقيم وزنًا لأي مجد،
ويَسحَق الرأس الوضيعَ والرفيعَ معًا،
ويسوِّي الأدنى بالأعلى.
أين هي عظامُ فابريكيوس[٢] الماجد؟
أين كاتو[٣] العنيد، أين بروتوس؟[٤]
شهرةٌ ضئيلةٌ متبقيةٌ منقوشةٌ على حجر،
سطرٌ أو سطران ... صيتٌ فارغ.
نرى أسماءهم النبيلة منقوشةً،
وبها فقط نَعرِف أنهم قضوا.
وأنت أيضًا ارقد مجهولًا تمامًا من الناس،
لا شهرة لديك تُدلي عنك بخبر،
فإذا حَسِبت أن الحياة يمكن أن تطول
بدوام الشهرة وبقاء الذِّكر،
فسوف يأتي اليوم الذي تُقْبر فيه شهرتك أيضًا.
هنالك يكون بانتظارِك موتٌ ثان.

---

[٢] فابريكيوس Gaius Fabricius Luscinus قائد وسياسي روماني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، واشتُهر بالحكمة والصرامة والصلاح، وهي الفضائل النموذجية للروماني القديم، لم يتمكن بيروس من إرهابه ولا رشوته.

[٣] كاتو (٩٥–٤٦ق.م) سياسي روماني رواقي اشتهر بالخلق التقليدي القويم، يراه لوكانوس في ملحمة «الحرب الأهلية» (أوفرساليا) Pharsalia تجسيدًا للفضيلة.

[٤] هناك بروتوس الذي قاد الرومان إلى الإطاحة بآخر الملوك، وانتُخب أول قنصل عام ٥٠٩ق.م، وهناك بروتوس الذي اشترك في اغتيال يوليوس قيصر عام ٤٤ق.م وعُرِف أيضًا بالاستقامة والفضيلة.

الفصل الثامن

الشدة خيرٌ من الحظ

ولكن لا تظن أني أشن حربًا على الحظ لا هوادة فيها، فأحيانًا ما يَكُف الحظ عن الخداع ويكون عونًا للمرء؛ أعني عندما يُفصح عن نفسه ويُسفر عن وجهه ويُعلن أحكام لعبته، لعلك لم تفهم بعدُ ماذا أعني، إنه شيءٌ غريبٌ هذا الذي أريد قوله؛ «مفارقة» paradox؛[1] ولذا أجد صعوبةً في التعبير عنه بالكلمات، فأنا أعتقد أن الحظ السيِّئ أفضل للمرء من الحظ السعيد!

الحظ السعيد يبدو دائمًا كأنه يجلب للمرء السعادة، غير أنه يخدعه بابتساماته، بينما الحظ السيِّئ صادقٌ دائمًا لأنه يكشف له عن طبيعته الحقيقية المتقلبة، الحظ السعيد يخدع، والحظ السيِّئ يُربِّي ويُعلِّم، الحظ السعيد يستعبد بالعطايا الكاذبة عقول الذين يحبونها، بينما الحظ السيِّئ يحرِّر الناس إذ يُعلِّمهم أن السعادة شيءٌ هش، هكذا

[1] المفارقة الأدبية irony غير «المفارقة» paradox، بالمعنى الفضفاض، هي كل عبارة أو نتيجة مُغْربة، وتنشأ المفارقة عندما تؤدي مقدماتٌ معينةٌ تبدو واضحةً لا خلاف عليها إلى نتائج متناقضة أو غريبة أو غير مقبولة، ولكي نحِلَّ مفارقةً ما فإن علينا أن نبيِّن أن هناك غلطةً خفيةً في المقدمات، أو أن الاستدلال مغلوط، أو أن النتيجة التي تبدو غير مقبولة هي في الحقيقة صوابٌ يمكن تقبُّله، وتكمن أهمية المفارقات في الفلسفة في أنها تضطرنا إلى مراجعة مفاهيمنا، وفي أن كل مفارقة منها يتطلب حلها جهدًا لا نفرغ منه إلا وقد تَكَشَّف لنا شيءٌ في تفكيرنا الاستدلالي لا نفهمه، ومن أبلغ استباقات بوئثيوس قوله في موضعٍ لاحقٌ من «العزاء»: «هل تود أن أطرح مفارقةً، أو تضاربًا في الحجج، لعل اصطدامًا من هذا النوع أن يولِّد شررًا جميلًا من الحقيقة؟»

يمكنك أن ترى أن الأول قُلَّبٌ لا يعرف نفسه، وأن الآخر رصينٌ مُعتزمٌ حكيمٌ من خلال خبرة الشدائد ذاتها.[٢]

وأخيرًا فإن الحظ السعيد يُغوي الناس، بمداهناته، عن طريق الخير الحقيقي، بينما الحظ السيئ كثيرًا ما يَرُدهم إلى خيرهم الحقيقي كالراعي يردهم بعصاه، وهل بالقليل أن هذا الحظ القاسي الفظ قد كشف لك عن الأصدقاء المخلصين لك بقلوبهم؟ وكشف لك أصحاب الابتسامة الصادقة وأصحاب الابتسامة الكاذبة؟ عندما تخلَّى عنك الحظ فقط أخذ معه أصدقاءه وترك لك أصدقاءك، ولو أنك بقيت سالمًا ومحظوظًا كما تظن لما أتيح لك مثلُ هذه المعرفة بأيِّ ثمن، لا تأس، إذن، على ثروةٍ فَقَدْتها فقد عثرت على أثمن ثروةٍ على الإطلاق — أصدقائك الحقيقيين.[٣]

من خلال الحب
يَجترح العالم تغيراتٍ دائبةً،
بانسجامٍ دائم،
الحب يفرض تناغمًا بين أضدادٍ

[٢] تحوَّلت هذه الفكرة البسيطة إلى فلسفة كاملة في التاريخ، هي نظرية «التحدي والاستجابة» challenge and response لأرنولد توينبي، يذهب توينبي إلى أنه ليس صحيحًا أن البيئة السهلة هي التي تنبثق منها الحضارة، فالظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستحث الإنسان على التحضر، بل إن رغد العيش حائلٌ دون قيام الحضارة، فالشدائد وحدَها هي التي تستثير الهمم، وتتمثل الظروف الصعبة إما في بيئة طبيعية أو ظروف بشرية: تستحث البيئة الطبيعية القاسية الإنسان على تغيير موطنه أو تعديل بيئته، فالأرض الشاقة والموطن الجديد يُشكلان تحديين يستثيران قوى الإبداع في الإنسان، أما تحدي الوسط البشري فيتمثل في عدوان خارجي من دولة مجاورة أو جماعة بشرية (أرنولد توينبي: فضائل الشِّدَّة، دراسة في التاريخ).

[٣] يقول الشاعر العربي في هذا المعنى:

فشكرًا للشدائد ألف شكرٍ عَرَفتُ بها عَدوِّي من صديقي

لو تُركت لطبيعتها لتناحرت،
الشمس في عربتها الذهبية
تحدو النهارَ الوضَّاح،
ونجمُ المساء يسوقُ الليلَ؛
حيث يبسط القمرُ سلطانَه
للبحر الطامح حدٌّ
يوقف عنده أمواجه،
فلا تطغَى على اليابسة
كل هذه السلسلة من الأشياء،
في البر والبحر والسماء،
يمسكها حاكمٌ واحد
لو أرخَى الحب العنان؛
ستشنُّ كل الأشياء التي تحفظ السلام الآن،
سَتَشن حربًا دائمة،
وتحطم الآلة العظيمة
التي تحفظ وحدتها
بحركاتٍ جميلة
... ...
الحب أيضًا يحفظُ الناسَ متحدين
بميثاقٍ مقدس،
ويعقد بالود الصادق
عقدة الزواج المقدسة
الحبُّ يملي على الأصدقاء الخُلَّص
قوانينَ رابطة الصداقة
... ...

آه أيها الفانون السعداء،
لو أن قلوبكم محكومةٌ أيضًا
بما يحكمُ العالَمَ
بالحب.[٤]

[٤] في القصيدة ٥ من الكتاب الأول تساءل «بوئثيوس» لماذا تشمل العناية كلَّ شيء في الكون عدا أفعال البشر، فتدعها بلا ضوابط، وتتركهم نهبًا لتقلبات القضاء، وتترك المجرمين يدوسون رقاب الصالحين، وتأتي هذه القصيدة (وكذلك القصيدة ٦ من الكتاب الرابع) فتأخذُ القصيدة السابقة إلى شيءٍ من القصد، وتُشير إلى قوة المحبة التي تحفظ السلام في العالم الطبيعي وتمنع الفوضى، وبها يشمل الله البشر أيضًا بعنايته من خلال سلطة المحبة التي تحفظ السلام بين الأمم، وتُبارك الزواج وتدعم الصداقة، غير أن القصيدة تتضمن أيضًا أن بإمكان البشر أن يتمرد ضد هذا الحب ويغترب عن مخطط الأشياء، ومن هذا الطريق فقد «بوئثيوس» الجادة وحاد عن سواء السبيل، إلا أن القصيدة تَعِده، ضمنيًّا، بأنه من طريق المحبة سوف يعود ثانيةً إلى وطنه الحقيقي.